

حسن محمد الشرقاوي

- ❖ مؤسسة شباب الجامعة، مطابع جريدة السفير، الإسكندرية - مصر العربية، 2002(*) [كتاب يقع في (399) صفحة من القطع المتوسط].
- ❖ لغة البحث (الكتاب): اللغة العربية
- ❖ مجال البحث (الكتاب): أسلمة علم النفس - الصحة النفسية

□ □ □

يشير فهرس الكتاب إلى أبواب أربعة: أسس علم النفس الإسلامي (بتسعة فصول)، أمراض القلب (بتسعة فصول)، الطريق إلى الصحة النفسية (اثني عشر فصلاً)، استخدامات علم النفس في المجالات المختلفة (بثمانية فصول)، فالكتاب في مجمله يتكون من (35) فصلاً.

* يوضح المؤلف في مقدمته أنه لا يستهدف من كتابه وضع العقوبات أمام العلوم والمناهج الوضعية والتجريبية لأنها تخدم حضارة الإنسان وتيسر له أمر حياته، إلا أنه يرى أن هذه العلوم اغترت بطرائقها وانبهرت بنجاحها فأبعدت مناهجها عن الدين مدعية العلم الموضوعي بنظرة مقصورة على الجانب التجريبي أو الملموس والمحسوس.

ثم يحمل المؤلف كثيراً جداً على علماء النفس المعاصرين، ويقدم كتابه كمحاولة للسير في الاتجاه الصحيح في دراسة النفس واختيار المنهج السليم في تفهم الدوافع الإنسانية.

* يبدأ المؤلف بابه الأول بمحنة علم النفس الحديث الذي يراه بأنه وليد لم يشب عن الطوق بعد، ويعتمد على اجتهادات شخصية لبعض علمائه ما يلبث غيرهم أن يقيموا الحجة عليهم ويدحضوا آراءهم. ويضرب مثلاً على ذلك «تعريف الشخصية»، فبرغم مئات التعريفات إلا أن علم النفس لم يستطع حتى

(*) لم يشر غلاف الكتاب ولا داخله عن الطبعة الخاصة بهذا الكتاب (الذي أعطي تأريخ 2002)، إلا أن مقدمة الكتاب تشير إلى أن هذه النسخة هي الطبعة الثالثة وأن الكتاب ألف أساساً في عام 1994م.

الآن الخروج بتعريف شامل وواضح لها. ويرى المؤلف أن السبب في ذلك هو إصرار علم النفس على إخضاع الشخصية الإنسانية تعسفاً لمناهج العلوم الوضعية والتجريبية.

وفي الفصل الثاني يفيض الباحث بموقف مدرسة التحليل النفسي وفرويد من الشخصية الإنسانية ليفندها ويحمل عليها من خلال آيات القرآن والأحاديث النبوية وكتب التراث والكتب الدينية، والمؤلف يحاجج فرويد ومدرسة التحليل النفسي نقطة نقطة وليس في المجمل أو الإطار العام.

وفي الفصل الثالث يحاول المؤلف أن يصف طبيب النفس الإسلامي، ويحمل فيه كذلك على أبحاث علم النفس التجريبي والإكلينيكي ويرى أنه كان عليهم اتباع منهج أكثر ايجابية وأقل ضرراً في السلوك الإنساني وأكثر صدقاً في وصف النفس البشرية. كما أن العلاج النفسي لابد أن يتوجه لغرس النواحي الايجابية المستمدة من نور الإيمان وبث السكينة والأمن بدلاً من إثارة الغرائز بدعوى التنفيس. فالتنفيس عن عيوب النفس ومتابعة السلوك الانحرافي أمر سلبي ويضر أكثر مما يفيد.

فالطبيب - برأي المؤلف - يجب أن يكون مريباً فاضلاً ذا تجربة شخصية ذوقية فردية. والطبيب النفسي الإسلامي يروض نفس المريض ليجعلها قابلة لتغيير طبعها وتحسين أخلاقها

* ثم يتكلم المؤلف في الفصول اللاحقة عن خصائص النفس (وهي واحدة ولها علامات سبع: أمانة، لومة، ملهمة، مطمئنة، راضية، مرضية، كاملة) وخصائص بعض هذه العلامات، ثم يدخل في الإبتلاء كتجربة واختبار حيث الإنسان مسيراً في أفعاله مغلوباً على أمره حتى لو تعلق الأمر بالإبتلاء كنوع من اختبار الله للإنسان. ثم يأتي على الخواطر كخطاب يرد على النفس، وقد يكون شيطانياً أو ملائكياً أو ربانياً وأن النفس الساكنة والهميمة بالحق قادرة على التمييز الواعي بين الخاطر الشيطاني والرباني وتعرف أن خاطر النفس لا يصدق وأن خاطر القلب لا يكذب.

ثم يدخل في النظرة الصوفية عن الخواطر وينقل نصوصاً فيها وخاصة عن

الشيخ عبدالقادر الجيلاني، ثم يخلص إلى أن الخواطر خطاب يرد على الضمائر، فإذا كان من قبل المَلَك فهو الإلهام وهو علم لدني وإن كان من قبل الشيطان فهو الوسواس.

* بعدها يدخل المؤلف في أمراض القلب وهو الباب الثاني لكتابه، ويستفتحه بآيات كثيرة في القرآن الكريم تتكلم عن القلب. ثم يدخل في المرض الأول وهو (الرياء) الذي ينطوي على الخداع وإظهار عكس المبطن، ويشابه المؤلف بين المرائي في المفهوم الإسلامي والنجسي في المفهوم النفسي.

والمرض الثاني للقلب في الكتاب هو (كلبية الغضب) الذي يعتبره المؤلف من القوى الشيطانية التي أودعها الله في الإنسان، ثم يشرح المؤلف حقيقة الغضب والإفراط فيه وأسباب غضب الإنسان وعلاج ذلك من خلال الأحاديث النبوية والنقولات التراثية.

والمرض الثالث للقلب هو (الغفلة والنسيان) حيث يعطي الباحث رأي علم النفس في النسيان (بنصوص عربية حديثة ولكنها قديمة جداً تعود إلى الأربعينيات والخمسينات من القرن الماضي) ثم يتكلم كيف يعالج علم الإسلامي (وكانه حقيقة قائمة وثابتة) موضوع الغفلة والنسيان بشمولية أكبر فينظر للإنسان كوحدة في غفلتها ويقظتها.

و(الوسواس) هي المرض الرابع للقلب ويعطي المؤلف رأي فرويد فيها أولاً ثم رأي الإسلام (من وجهة نظر المؤلف بالطبع) فيها، ويعطي للوسواس أبواباً عشرة كما جاءت في التراث الإسلامي، وقصصاً عن الشيطان وإبليس.

ثم مرض (اليأس والقنوط)، واليأس انقطاع الأمل والرجاء وأعلى درجات القنوط كما يقول المؤلف. ويرى أن اليأس صفة لازمة دائمة للمشرك والكافر عند تجربته بالفاجعات وامتحانه بالمصائب.

ثم مرض (الغرور) الذي ينحصر عند الكافر بالإغترار بالدنيا فهي كل شي عنده، والإغترار بالله الذي يزين له اعتقاده الفاسد أنه إذا كان الله سيعيده في الآخرة فإنه أحق بمودته وإحسانه. أما غرور المؤمن فهو باعتقاده أن الله غفور

رحيم فيأمل عفوه ويهمل الصالحات ويتكل على رحمة الله وتسامحه.

وبعد الغرور(العجب) الذي يبدي فيه المؤلف رأي فرويد أولاً ثم رأي الإسلام الذي يلخصه ابن مسعود رضي الله عنه بأن الهلاك في اثنين: القنوط والعجب. كما ينقل المؤلف بعد ذلك مرض (الحقد والحسد) وهو مرض يقول عنه المؤلف أنه قل أن يخلو منها إنسان، ويميزها عن المنافسة التي يعتبرها من الحسد المباح.

* ثم يتكلم الباب الثالث عن الطريق إلى الصحة النفسية ليبدأ بالقلب السليم الذي يأخذ بالمجاهدة والرياضة النفسية وذكر اللطائف الربانية (تعبيرات ومصطلحات صوفية ليس في هذا الفصل حسب وإنما في كل الكتاب).

ويرى المؤلف أن مفتاح الصحة النفسية في الإسلام هو الوسط العدل (وهو الخير الفاضل) وفيه القسط والاستقامة والصفح الجميل (دون قانون الغاب الذي تذكره مدرسة التحليل النفسي)، وكظم الغيظ والعفو عن الناس والتسامح والغفران، وهذه هي أصول التربية الحق للنفس لتقوده إلى الصحة النفسية. أما العمل الصالح فإن علم النفس الإسلامي يعطيه -برأي المؤلف- صورة أشمل وأعمق عن نظرة علم النفس له، لان الإسلام قرن العمل بالأخلاق (ويشجب المؤلف هنا كل النظريات النفسية في هذا المجال).

ثم يدخل المؤلف في الرؤيا ويميزها عن أضغاث الأحلام ويأخذ بتقسيمات الشيخ النابلسي للمنامات (بشرى، تحذير، أمانى في النفس)، ثم يقسم المؤلف الحلم (وهو غير الرؤيا) إلى سبعة أقسام: حديث النفس، الإحتلام، تهاويل الشيطان، أفعال السحرة، غلبة الطباع، الذكريات القديمة، الحلم الشيطاني. ثم يدخل بعدها في الرؤيا الصالحة، والرؤيا الصادقة، والرؤيا بطريق ملك الرؤيا، والرؤيا الرمزية، والرؤيا بالشهود.

* ثم يرى المؤلف أن الرؤيا هي باب للتائبين والصالحين والزاهدين يبرز فيها دور القلب الذي ترد عليه أنوار الكشف فتراه عين الفؤاد لا عين العقل.

أما الإحتلام فيورد فيه المؤلف رأياً غريباً يقتبسه من الشعراني بأن المرید

(الصوفي) يؤاخذ في الاحتلام لأنه تعبير عن أمنية من أمانى النفس تظهر عند النوم (*) .

ثم يرى المؤلف أن الصمت (ويسميه صمت الحكيم) طريق إلى الصحة النفسية والكمال الأخلاقي والإنساني. ثم (ذكر الله) كطريق رائع للصحة النفسية كذلك. فهو بلسم شاف ينقي القلب ويجعله قابلاً لإستقبال المعاني الآلهية والأسرار الربانية. ثم (الأمن والأمل) كعلاج (العلم النفس الإسلامي) للخوف والرعب والفرع. بعده (المحبة) ويميز بين حب الله وحب الدنيا. والحب في الإسلام حبان: حب النفس وحب الحق، فالأول يقود إلى الشهوات والتهلكة، والثاني يرقى به إلى أعلى المقامات.

ثم يتكلم الباحث عن (حزن الصادقين) ويميزه عن (الكبت) في علم النفس الحديث، فهو عندهم كمد وهم وغم بينما يراه الصوفيون (ويسميه المؤلف أو ينسب إليهم علم النفس الإسلامي) أنين صادر من القلب، وهو زاد المؤمن. فكلما زاد همه وحزنه زاد ثوابه [والرسول ﷺ يستعيز يومياً من الهم والحزن ويعتبره المؤلف زاداً للمؤمن!!] وهو غير الحزن على الدنيا ومتاعها.

كذلك (الإضطراب والإفتقار) فالصادق مع الله لا يرى غير الله ولا يستطيع العيش بدونه. ثم (محاسبة النفس) لان النفس لا تصدق دائماً ولا يؤمن لها.

أما (معرفة النفس) فهي من الموازين الدقيقة لعلم النفس الإسلامي (بتعبير المؤلف) لاستجلاء دفينة النفس وسبر غورها والتبين من صدقها وكذبها.

* وفي الباب الرابع والأخير من الكتاب يقدم المؤلف استخدام علم النفس (في المجالات المختلفة)، وبعد مقدمة طويلة جداً يدخل المؤلف في (الرياضة النفسية) حيث ينقل المؤلف عن الشيخ الجيلاني أن الفساد يدخل إلى النفس من

(*) ينقل المؤلف عن (الشعراني) وينسب الحديث الصحيح للرسول صلى الله عليه وسلم عن الثلاثة الذين يرفع عنهم القلم، ومنهم (والنائم حتى يستيقظ)، فالمصطفى عليه الصلاة والسلام يرفع عن النائم القلم ويحاسبه الشعراني عليه!!! ثم إن النائم ميت بقوله سبحانه وتعالى في سورة الزمر ﴿يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ فهل وكل الشعراني بمحاسبة المتوفى؟

جهات ثلاث (سقم الطبيعة، ملازمة العادة، فساد الصحة)، وأن الرياضة لا تتم إلا بمعرفة خصال أربع (معرفة الله تعالى، معرفة عدو الله إبليس، معرفة إن النفس أمانة بالسوء، معرفة العمل إلى الله تعالى). أما الإمام الغزالي فيرى أن الرياضة النفسية تتم عن طريق رياضة الأدب (مخالفة أهواء النفس) ورياضة القلب (الإخلاص والصدق في المجاهدة).

ثم يستعرض المؤلف (التربية النفسية) التي يراها أنها تتم عن طريق التأديب والترويض وتحقيق الخير وبالتمثل في القدوة الحسنة. ثم يعطي نصائح الشيخ الجيلاني في آداب التربية (من كتابه الغنية).

أما (الإستعاذة) فهي ملاحقة الإنسان لخواطره ومحاصرة وساوس الشيطان، وعلى العبد أن يناضل هوى النفس ويكافح وساوس الشيطان.

ثم يرى المؤلف أن العلاج النفسي يتم عن طريق (التوحيد) وهو استرسال مع الله تعالى في كل أمر من الأمور. كما يكون العلاج (بالذكر) كأفضل طريقة له. ويميز الباحث بين العلاج النفسي بالطرق النفسية (التحليل النفسي) والعلاج بالذكر. علاج نفسي آخر يتم عن طريق (الصبر) وهو حبس النفس عما تنازع إليه من شهوات وشكوى وآلام، فموقف الصابر موقف واع وطريق اختياري يفضل فيه تحمل المكابدة على مقارفة الهوى.

كذلك يتم العلاج النفسي بالأضداد، فإن تنازع الإنسان أمران فعليه: أن يميل إلى أثقلهما على نفسه إذ لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً وصدقاً، ثم يعالج الباحث ظلم النفس بعد ذلك.

□ □ □

عناوين رئيسية:

علم النفس الإسلامي، التصوف وعلم النفس، الصحة النفسية، العلاج الصوفي للنفس، مهلكات النفس، الأمراض النفسية.

□ □ □

- لا ادري مدى تعمق المؤلف في علم النفس، فنقولاته النفسية لا تتعدى كتابات فرويد (من أكثر من 80 سنة) وبعض المراجع العربية التي مضى على تأليف بعضها أكثر من نصف قرن وهي تتحدث عن علم نفس العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي.
- الكثير جداً من علماء النفس المسلمين (ومنهم كاتب هذه المَسرد) لا يقرّون الكثير من طروحات علم النفس المعاصر، لأننا نختلف معه في الإطار النظري والخلفية الفلسفية.
- إلا أن المطلوب من الناقد لعلم النفس المعاصر أن يكون من أهله المتعمقين فيه جداً، من الموضوعيين في أحكامهم وتعميماتهم جداً، ومن غير الباحسين الناس أشياءهم كما يؤدبنا القرآن الكريم.
- فالعناوين التي يهاجم بها المؤلف علماء النفس وعلم النفس قد لا تختلف معه جمعياً - كمسلمين -، ولكن الأسلوب والطريقة والموضوعية العلمية أهم ما يميز الكاتب المسلم عن غيره.
- المؤلف صوفي وغارق في صوفيته ولا أحد يلومه أو يعترض عليه فهذا شأنه، إلا أنه لا يحق له أن يسمي كل ما جاء في الكتابات الصوفية التراثية أو في الحقيقة ما نقل هو عنهم أو اختار منه (بعلم نفس إسلامي)، ولا كل مريض (بطالب أو مريد)، فالتصوف شيء وعلم النفس شيء آخر. وشيوخنا الذين نجلّهم أيما إجلال (الجيلاني، المحاسبي، الغزالي إلخ) لم يكونوا علماء نفس ولم يتكلموا عن علم نفس، وإنما كانوا يتكلمون عن تركية النفس البشرية وتعميق صلتها بالله سبحانه. وهذا ما يمكن أن يؤخذ مدخلاً إلى الصحة النفسية أو علاج النفس المريضة ولكن ذلك لا يشكل علماً للنفس.
- وأخيراً، فإن المؤلف يورد نقولات صوفية وكأنه حاطب ليل، منها ما يخالف صريح القرآن الكريم ومنها ما يخالف صحيح السنة النبوية بإسم الإسلام وعلم النفس الإسلامي.